من السمات المؤثرة لتفسير المنار في تفسير "نهج البيان في تفسير القرآن" للشيخ محمد المختار السلامي التونسي

(١٩٢٥ – ٢٠١٩م)

بحث مقدم من الباحث

علي مفتاح

لاستكمال متطلبات نيل درجة الدكتوراه للعام الجامعي

(٢٠١٩ – ٢٠٢٠)

كلية الآداب – قسم اللغة العربية (دراسات إسلامية)

من السمات المؤثرة لتفسير المنار في تفسير السَّلَّامي "نهج البيان في تفسير القرآن"

مقدمة:

ظل التفسير فترة من الدهر يُعيدُ المُتأخرون ما قاله السابقون خالياً من التجديد والابتكار.

واستمر الأمر هكذا حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة، فاتجهت أنظار العلماء بدراسة التفسير من أجل التحرر من قيد هذا الجمود، ويتخلصوا من نطاق هذا الركود، فنظروا في كتاب الله نظرة أثرت في الاتجاه التفسيري للقرآن الكريم، وهذه النظرة لا يمكن أن تُنكر، وإن كان لها ارتكاز واعتماد على ما دوّنهُ الأوائل في التفسير[١].

هذه النظرة الجديدة للتفسير كان مؤداها العمل على تنقية التفسير مما علق به، وران عليه من استطرادات حُشرت في التفسير، ومُزجت به على غير ضرورة لازمة، وكذلك تنقية التفسير من القصص الإسرائيلي، وتمحيص ما جاء فيه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ثم إلباس التفسير ثوباً أدبياً اجتماعياً يظهر من خلاله روعة القرآن الكريم، ويكشف عن المرامي الدقيقة والأهداف السامية لهذا الكتاب العزيز[٢].

ومن هذه النظرات التجديدية في التفسير: تفسير المنار للإمام محمد عبده، وتلميذه رشيد رضا، ومن نحا نحوهما من المفسرين.

ويقرر صاحبا تفسير المنار، أن التفسير المطلوب للقرآن الكريم هو: "فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، فإن هذا هو المقصد الأعلى منه، وما وراء هذا من المباحث تابع له، أو وسيلة لتحصيله" [٣].

ومن هنا يتبين أن التفسير عند صاحبا المنار قسمان:

الأول: تفسير جاف بعيد عن الله وعن كتابه، وهو ما يُعنى بالألفاظ والإعراب وغير ذلك من المباحث، وهذا لا يسمى في نظرهم تفسيراً، وإنما هو ضرب من التدرب على الفنون كالنحو وغيره.

---

[١] ينظر التفسير والمفسرون، للذهبي، ج٢، ص/٤٩٥ – ٤٩٦ ؛ والتفسير النبوي للقرآن الكريم وموقف المفسرين منه، د/ محمد إبراهيم عبد الرحمن، دار كندة، ط٢، ٢٠٠١، ص/٢٣٩ - ٢٤٠

[٢] اتجاهات التفسير في القرن الرابع الهجري، د/ فهد الرومي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هجري، ص/٧٤٣ - ٧٩٨

[٣] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج٥، ص/١.

والثاني: وهو التفسير المقصود، ويجب على الناس، على أنه فرض كفاية، وهو الذي يستجمع تلك الشروط لأجل استعمالها لغاياتها، وهو ذهاب المُفسر إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية، فالمقصود هو الاهتداء بالقرآن الكريم[١].

وفي هذا البحث نتناول بعض السمات المؤثرة لتفسير المنار في تفسير"نهج البيان في تفسير القرآن" للشيخ محمد المختار السَّلَامِي التونسي.

أهمية البحث، وأسباب اختياره:

١- ارتباط هذاالموضوع بكتاب الله وبعلم التفسير. وكفي بهما سببا وشرفا.
٢- أهمية تفسير"نهج البيان"العلمية، وقلة المعرفة بالمدرسةالتونسية المعاصرة في التفسير.
٣- إضافة دراسة جديدة في مجال تفسير القرآن من خلال تفسير " نهج البيان ".
٤- إظهار القيمة العلمية لتفسير "نهج البيان" والمدرسة التي ينتمي إليها.
٥- الكشف عن أثر مدرسة المنار، في تفسير نهج البيان.

أهداف البحث:

١- معرفة منهج الشيخ السّلّامي والمدرسة التي ينتمي إليها في التفسير.
٢- الكشف عن العلاقة بين تفسير "نهج البيان" و تفسير المنار؛ في التفسير وقضايا علوم القرآن.

المنهج المتبع في البحث:

اقتضت طبيعة هذا البحث أن يسلك الباحث المنهج " الوصفي " ومن ثم يتبع المنهج المقارن، للكشف عن أثر تفسير المنار في تفسير " نهج البيان " في بعض السمات المؤثرة

خطة البحث:

وقد سرتُ في هذا البحث على خطة تتضمن : مقدمة – وتمهيد – ومبحثين– وخاتمة. وتفصيلها على النحو الآتي :

"مقدمـــة"

وتتضمن : أسباب اختيار الموضوع وأهميته – وأهداف البحث – ومنهج البحث – وخطة البحث.

[١]تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج٥، ص/١

" تمهيد " وفيه :

تعريف موجز بالشيخ محمد المختار السَّلَّامي، وبكتابه "نهج البيان في تفسير القرآن".

تعريف بالشيخ السَّلَّامي:

هو العلامة الأستاذ الخطيب المفتي سماحة الشيخ محمد المختار بن أحمد بن محمد السّلّامي. ولد بصفاقس- تونس- يوم ١٠ أكتوبر ١٩٢٥م، ونشأ ببيت علم وصلاح، إذ كان والده من رجال التجارة المعروفين بالتقوى والنزاهة[١].

تتلمذ السّلّامي حفظه الله في مختلف مراحل تعليمه بجامع الزيتونة على يد نخبة من علماء عصره منهم : العلامة محمد العزيز جعيط[٢]، والعلامة البحر محمد الفاضل بن عاشور[٣]، وقاضي الجماعة الشيخ، رحمهم الله جميعا.

عُين مفتي الجمهورية التونسية من سنة ١٩٨٤م إلى سنة ١٩٩٨م.

توفي الشيخ محمد المحتار السَّلَّامي يوم الاثنين، الموافق ٢٠١٩/٨/١٩م . رحمه الله رحمة واسعة.

---

[١] الفتاوى الشرعية، محمد المختار السّلّامي، جمع وإعداد: محمد العزيز الساحلي، دار سحنون للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (٢٠١٤)، ص/ ٩- ١٠.

[٢] محمد العزيز الجعيط (١٨٨٦م – ١٩٧٠م) جامعي وسياسي ورجل دين تونسي، تولى منصب وزير العدل قبل استقلال تونس، في حكومة مصطفى الكعاك، وتولى بعد الاستقلال منصب مفتي الجمهورية وكان أول من تقلده، ينظر: فتاوى شيخ الإسلام محمد العزيز الجعيط، دراسة وتحقيق : محمد بوزغيبة، مركز الدراسات الإسلامية، القيروان، ط/١، (١٩٩٤)، ص/ ٢٠.

[٣] محمد الفاضل بن عاشور (١٩٠٩م – ١٩٧٠م) أحد أهم علماء الدين الذين عرفتهم تونس في القرن العشرين، تولى منصب مفتي تونس من سنة ١٩٦٢م إلى سنة ١٩٧٠م. ينظر الزيتونيين ودورهم في الحركة الوطنية التونسية، د. علي الزيدي، مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، (٢٠٠٧).

المبحث الأول
المسائل العقدية في تفسير المنار، وأثرها في تفسير نهج البيان

أولاً: الجبر والاختيار

الذي عليه أهل السنة والجماعة، أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأنه سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد، وأن العباد لهم قدرة وإرادة والله خالقهم وخالق إرادتهم، وأنه يريد الكفر من الكافر ويشاؤه ولا يرضاه ولا يحبه، فيشاؤه كوناً ولا يرضاه ديناً[١].

وذهب الجبرية إلى أن التدبير في أفعال الخلق كلها لله، وهي كلها للإنسان اضطرارية لا اختيار له بين الفعل والترك، بل هو كالريشة في الهواء، وأن إضافتها للخلق مجاز، وعلى هذا فعندهم كل أفعال العباد طاعات[٢].

وذهبت المعتزلة إلى إنكار القدر، وزعموا أن الإنسان هو الذي يخلق فعله، وأن الله شاء الإيمان من الكافر ولكن الكافر شاء الكفر، ذهبوا إلى هذا لئلا يقولوا شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه[٣].

ولقد مال الإمام محمد عبده إلى ما ذهبت إليه المعتزلة في مسألة الجبر والاختيار، مع ما أظهره الإمام من حيرة في هذه المسألة وتفويض علم ذلك إلى الله[٤].

يقول الإمام محمد عبده : " أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته، وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار، فهو من طلب سر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه واشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه، وقد خاض فيه الغالون من كل ملّة خصوصا من المسيحيين والمسلمين، ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفا حيث ابتدأوا، وغاية ما فعلوا أن فُرِّقُواْ وشُتِّتُواْ، فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلاله المطلق، وهو غرور ظاهر، ومنهم من قال بالجبر وصرَّح به، وهو هدم للشريعة ومحو للتكاليف وإبطال لحكم العقل البديهي وهو عماد الإيمان " [٥].

ويميل الإمام إلى مذهب الاختيار فيقول : " كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج في ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم

---

[١] شرح العقيدة الطحاوية، علي الحنفي، ص/٢٧٧.
[٢] المرجع السابق، ص/٤٩٣، والمدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد الرومي، ج٢، ص/٥٣٤.
[٣] منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد الرومي، ج٢، ص/٥٣٥.
[٤] المرجع السابق، ج٢، ص/ ٥٣٦.
[٥] رسالة التوحيد، محمد عبده، ص/٦١.

يرشده، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله، ويقدرها بإرادته، ثم يصدرها بقدره ويَعُدُّ إنكار شيء من ذلك مساوياً لإنكاره وجوده في مجافاته لبداهة العقل " [١].

يتحير الإمام محمد عبده في التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار، وقرر أن هذا طلب لسر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه، وأنه اشتغال بما لا تكاد العقول تصل إليه، وكأن كل ما عجزت عن الوصول إليه تلك العقول فلا يصح الاعتقاد به، والإيمان والتسليم له، وإن وردت به الآيات والأحاديث الصحاح.[٢]

موقف السّلّامي من قضية الجبر والاختيار:

وأما الشيخ السّلّامي في تفسيره " نهج البيان " فلم يسلك ما سلكه الإمام محمد عبده من التفويض في مسألة الجبر والاختيار أحياناً، ومن الميل إلى القول بالاختيار أحيانا أخرى، ولكنه وفق بين الأدلة على قدرة الله على كل شيء، وعلمه سبحانه الذي أحاط بكل شيء، وبين ما وُهِبَ الإنسان من القدرة والاختيار.

يقول السّلّامي في تفسير قوله تعالى : **(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ..)**[٣] : "إنه سبحانه لم يخلق البشر مضطرين إلى فعل الخير، منصرفين عن الشر من ذواتهم، أو من الأدلة الملجئة، ولكن حكمته تعلقت بتمكين الإنسان من عمارة الأرض، مستعينا في ذلك بما رزقه من قوى العقل، والمشاعر، وما غرسه فيه من غرائز. ثم أعانه على الاستقامة وطرد الشبه، والتعرف على ما هو مغيب عنه مما لا يصل إليه بقواه العقلية وحدها، أعانه بإرسال رسله بالبينات والهدى. وجعله مكلفا باتباع الخير والابتعاد عن الشر مجزيا على فعله الذي أقدم عليه باختياره. فلم يحمله بالقوة على الخير، ولم يصرفه بالقوة عن الشر. هذه إرادة الله ومشيئته التي خلق عليها الخلق "[٤].

ويؤكد السّلّامي موقفه من قضية الجبر والاختيار بالتوفيق بين الأدلة التي جاء بها الوحي من أنَّ الله خالق كل شيء، وأن كل شيء بمشيئته وعلمه

---

[١] رسالة التوحيد، محمد عبده، ص/ ٥٩ – ٦٠.
[٢] منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، ج٢، ص/٥٤٣ بتصرف.
[٣] أول الآية (١٣) من سورة السجدة.
[٤] تفسير نهج البيان، ج٥، ص/ ١٩٤.

سبحانه وتعالى، وبين ما أعطاه الله لخلقه من القدرة والإرادة، والله خالقهم وخالق إرادتهم.

يقول السّلّامي عند قوله تعالى : **(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)**[١] : " جاءت هذه الآية تجيب الإنسان عن تساؤلاته. فتهديه إلى النظر في كتاب الكون ليأخذ منه ما يساعده على الخروج من حيرته. انظر إلى ما تركب منه الكون من مواد، ومن أفعال في هذا الكون يقوم بها العاقل المختار، ويقوم بها البعض الآخر بالفطرة، وتجري الكائنات كلها المخلوقة لله على قوانين محكمة كأبلغ ما تكون الحكمة. تستطيع أيها الإنسان أن تدرس في حدود إمكاناتك العقلية، وفي عمرك المحدود فتتعمق في جزئية من تلك الجزئيات، فتلحظ أن كل صغيرة وكبيرة روعي فيها أنها تسير على قوانين الضبط والدقة. هذا هو التقدير الذي يُجري عليه الخلّاق العليم الكون **(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)** يستوي في ذلك المادي والعقلي والروحي. وهو الذي يرسل الرسل بالحكمة والهداية للحق، ثم يهتدي بهم من اختار طريقهم، ويعاديهم من لم يثق فيما جاؤوا به. وينتهي الأمر بالمؤمنين إلى الجنة، وينتهي العناد بالكافرين إلى النار. وقد أيد القسم الأول بألطافه دون جبر، وحرم الآخرين من ألطافه بدون جبر أيضاً "[٢].

ويمكن القول بأن السّلّامي لم يتأثر في قضية الجبر والاختيار بتفسير المنار، واختار ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة في المسألة.

ثانياً : الأسماء والصفات.

يقصد بالأسماء والصفات ؛ ما وصف الله – سبحانه وتعالى – به نفسه من أسماء وصفات وأفعال، في القرآن الكريم. أو ما وصفه به نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في الصحيح الثابت عنه . ولقد اختلفت مواقف الفرق الإسلامية في هذه الأسماء والصفات من حيث الإثبات والنفي، فأهل الحديث يثبتون الأسماء والصفات الواردة في الكتاب والسنة من غير تكييف، ولا تمثيل، ولا تشبيه، ولا تعطيل. وذهب الأشاعرة إلى إثبات سبع صفات لله سموها صفات المعاني . وأثبت المعتزلة الأسماء دون الصفات ، ونفت الجهمية جميع الأسماء والصفات [٣].

---

[١] سورة القمر، آية (٤٩).

[٢] تفسير نهج البيان، ج٦، ص/٢١٦ - ٢١٧

[٣] ينظر المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات، محمد المغراوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ص/ ٢٥٥ - ٢٩٢

ومن خلال استقراء آيات الصفات في تفسير المنار يظهر أن الأمام محمد عبده يأخذ بقول أهل التأويل من الأشاعرة وغيرهم في هذا الباب فمثلاً عند قول الله تعالى : (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)[١] يقول الإمام : " السياق يدل على أن الكرسي هو العلم الإلهي، وبذلك قال بعض المفسرين وأهل اللغة، ويقال كَرَسَ الرجل كفرح أي كثر علمه وازدحم على قلبه، أي أن علمه تعالى محيط بما يعلمون من شؤون سائر الكائنات... والآية تدل على أنه شيء يضبط السماوات والأرض ولا يتوقف التسليم على تعيينه والقول بأنه علم أو ملك أو جسم كثيف أو لطيف... فهو من عالم الغيب ولا نبحث عن حقيقته.[٢] فالإمام أوَّل الكرسي بالعلم ولم يأخذ بظاهر النص.

ويقول أيضا عند قول الله تعالى :(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ)[٣] : " الاستفهام في الآية بمعنى النفي وينظرون بمعنى ينتظرون وهي كثيرة الاستعمال بهذا المعنى في الكتاب العزيز ولا سيما في أمور الآخرة كقوله تعالى : (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً).[٤][٥] ينفي الإمام إتيان الله، الوارد في هذه الآية، ويؤل النظر بالانتظار، أي انتظار أمر الله وعذابه.

ويخالف التلميذ الإمام في هذا الباب.فقد ذهب السيد / محمد رشيد رضا إلى إثبات الأسماء والصفات الواردة في الكتاب والسنة من غير تأويل ، موافقا بذلك مذهب أهل الحديث في الأسماء والصفات يقول محمد رشيد رضا عند قوله تعالى : (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)[٦] " ... فسلف الأمة يمرون هذه الآيات بغير تأويل ويقولون إن الله مستوٍ على عرشه فوق السماوات وفوق العالم كله، وإنه بائن من خلقه وإنه مع ذلك ليس كمثله شيء، فليس بمحدود ولا محصور ولا متحيز فهذه اللوازم التي يبني عليها الجهمية وتلامذتهم تأويل صفة العلو مبنية كلها على قياس الخالق على المخلوق والقديم على المُحدث، ومن المعلوم أن جميع ما أُطلق على الله تعالى من الصفات حتى العلم والقدرة والإرادة؛ فإنما وضع في أصل اللغة لصفات البشر وهي مباينة

---

[١] سورة البقرة، آية (٢٥٥).
[٢] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج٢، ص/ ٣٣
[٣] سورة البقرة، آية (٢١٠).
[٤] سورة يس، آية (٤٩).
[٥] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج٢، ص/ ٢٦٢
[٦] سورة الأنعام، آية (١٨).

لصفات الله تعالى... فالحق الذي مضى عليه سلف الأمة أن الله تعالى يُوصف بكل ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله من غير تشبيه ولا تكييف " [١].

ويثبت السيد/ محمد رشيد رضا رؤية العباد لربهم في الآخرة كما أثبتها السلف من غير نفي ولا تأويل فيقول : " خلاصة الخلاصة أن رؤية العباد لربهم في الآخرة حق، وإنها أعلى وأكمل النعيم الروحاني الذي يرتقي إليه البشر في دار الكرامة والرضوان... وكل من نظر في جميع ما قالوا نظرة استقلال وإنصاف يجزم بأن ما كان عليه عامة السلف من إثبات كل ما صح به النقل وتفويض وتأويل الذي يكون عليه في الآخرة إلى عز وجل هو الحق الذي يطمئن به القلب، ويؤيده العلم والعقل، وهو الأسلم والأحكم والأعلم والله يعلم وأنتم لا تعلمون " [٢].

موقف السّلّامي من آيات الأسماء والصفات:

من خلال تتبع آيات الصفات في تفسير نهج البيان يتضح لنا موقف السّلّامي من هذه القضية، فهو على مذهب أهل التأويل في باب الأسماء والصفات. فالسّلّامي مالكي المذهب والعقيدة، وغالب أئمة المالكية على مذهب التأويل في باب الأسماء والصفات لا سيما المفسرون منهم، كما نلحظ تأثر السّلّامي بالإمام محمد عبده في هذا الجانب. ومن خلال ذكر نماذج من كلام السّلّامي يتبين ذلك.

وعلوه سبحانه سمو معنوي هو أرفع من أن يحيط به علم البشر، أو ينحصر في مدارك الإنسان، أو يتأثر بأي شيء مما يجري في الكون. كل شيء تافه بالنسبة للذات الإلهية. فهو العلي الأعلى ".[٣] فسر السّلّامي صفة العلو على طريقة أهل التأويل من الأشاعرة وغيرهم، وقرر أن العلو علوٌّ معنوي لا حسي.

وتردد السّلّامي في صفة الكرسي بين الإثبات والتأويل وإن كان لمذهب التأويل أميل فيقول في تفسير قوله تعالى : (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) : " ظاهر هذه الجملة أن الله له كرسي، وأن كرسيه أوسع من السماوات والأرض. واللفظ يحتمل أن يكون المراد مدلولا لا نعلم عنه إلاّ أنه يطلق عليه لفظ الكرسي، ويختلف اختلافا كاملا عن الكرسي المادي. فهو من متعلقات الذات الإلهية التي تقصر مداركنا عن الإحاطة بها. كما يحتمل اللفظ أن يكون المراد منه معنى غير حقيقي مما شاع استعماله في اللغة العربية من التعبير عن

[١] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج٧، ص/ ٣٣٧ – ٣٣٨ بتصرف.
[٢] المرجع السابق، ج٩، ص/ ١٧٧ – ١٧٨ بتصرف.
[٣] تفسير نهج البيان، ج١، ص/ ٢٣٤

السلطان بالكرسي. أو من إطلاق الكرسي على العلم. وعلى هذا يكون المعنى وسع علمه أو سع سلطانه "[١]. وهذا الاحتمال الأخير هو اختيار الإمام محمد عبده في معنى الآية.

ويقول أيضاً: عند قوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [٢] : " ولذا فإني أفهم من الاستواء على العرش ذلك المعنى الذي يسبق إلى فهم المخاطب إذا سمع: أن الملك الفلاني استوى على العرش، أنه تفرد بالسلطة. فعرش الله هو سلطانه على الكون بما يحويه. فهو خلقه وتدبيره، وهو المتحكم في واقعه ومصيره تطوراً وإفناء"[٣]. ينفي السّلّامي صفة استوى الله على العرش، ويؤول معنى الاستواء بالتفرد بالسلطة، وهو قول الأشاعرة حيث أوّلوا الاستواء بالاستيلاء. وهل نازع الله أحد في سلطانه حتى يقال استولى أو تفرد بالسلطان؟!.

ويؤول الشيخ السّلّامي صفة اليد الوردة في قوله تعالى : (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ)[٤] بالكرم وسعة العطاء فيقول : " ثم أعلن القرآن الحقيقة التي تكذبهم في دعواهم: فيداه مبسوطتان، ولا يراد من ذلك أن لله يَدَيْن، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل المقصود أن الله كريم كأوسع ما يكون الكرم، ينفق ويعطي تبعاً لإرادته العلية، وحكمته " [٥].

يتبين مما سبق أن السّلّامي في مسألة الأسماء والصفات على مذهب أهل التأويل من الأشاعرة وغيرهم، كما أنه متأثر بالإمام محمد عبده في المسألة.

---

[١] تفسير نهج البيان، ج١، ص/ ٢٣٤.
[٢] سورة طه، آية (٥).
[٣] تفسير نهج البيان، ج٤، ص/ ٧٢
[٤] سورة المائدة، آية (٦٤).
[٥] تفسير نهج البيان، ج٢، ص/٩٦

المبحث الثاني
الغيبيات

أولاً: الملائكة وإبليس في نظر مدرسة المنار.

للإمام محمد عبده نظرة في ماهية الملائكة، وهي أن الملائكة قوى غير عاقلة أودعها الله في الطبيعة. يقول الإمام في تفسير قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)[١]: " وذهب بعض المفسرين مذهبا آخر في فهم الملائكة، وهو أن مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنبات نبات وخلقة حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، وهو أن هذا النمو في النبات لم يكن إلاّ بروح خاص نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة، وكذلك يقال في الحيوان والإنسان، فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص، تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده، فإنما قوامه بروح إلهي سُمي في لسان الشرع ملكا[٢].

ولم يبال في التسمية بالتوقيف يسمي هذه المعاني القوى الطبيعية، إذا كان لا يُعرف من عالم الإمكان إلاّ ما هو طبيعة، أو قوى يظهر أثرها في الطبيعة. والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه هو أن في باطن الخلقة أمرا هو مناطها، وبه قوامها ونظامها، لا يمكن لعاقل أن ينكره، وإن أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكا وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوى طبيعية أو ناموسا طبيعيا لأن هذه الأسماء لم ترد في الشرع. فالحقيقة واحدة، والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسمّيات " [٣].

ومحمد عبده لا يستبعد كون الملائكة هي تلك الأحاسيس التي تنازع الإنسان عندما يتردد بين فعل شيء أو تركه.

يقول الإمام : " يشعر كل من فكر في نفسه ووازن بين خواطره، عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو الخير، ووجه للباطل أو الشر، بأن في نفسه تنازعا كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شورى، فهذا يورد وذلك يدفع، واحد يقول : افعل، وآخر يقول : لا تفعل، حتى ينتصر أحد الطرفين، ويترجح أحد الخاطرين، فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا، ونسميه قوى وفكرا- وهو في الحقيقة معنى لا يدرك كنهه، وروح لا تُكتنهُ حقيقتها- لا يبعد أن يسميه الله

---

[١] سورة البقرة، آية (٣٤).
[٢] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج/١، ص/٢٦٧- ٢٦٨
[٣] المرجع السابق، ج/١، ص/٢٦٧- ٢٦٨

تعالى ملكا، أو يسمي أسبابه ملائكة، أو ما شاء من الأسماء، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع؟ " [١].

ويقول أيضا في قصة الملائكة وإبليس : " فإذا صح الجري على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون الإشارة في الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها، وجعل كل صنف من القوى مخصوصا بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ما حُدد له من الأثر الذي خص به، خلق بعد ذلك الإنسان، وأعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الأرض، وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير، جعله بهذا الاستعداد الذي لا حد له والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة الله في أرضه، لأنه أكمل الموجودات في هذه الأرض، واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بإبليس وهي القوة التي تعارض في إتباع الحق وتصد عن عمل الخير وتنازع الإنسان في صرف قواه إلى المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته. ولو أن نفساً مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين ما يمنعها من ذلك " [٢].

الملائكة في نظر محمد عبده قوى لا تعقل وعبر عنها بالإيماء والإشارة ولم يصرح. وغرضه كما ذكر رشيد رضا[٣] : إقناع منكري الملائكة بوجودهم بتعبير مقبول عندهم، وهو بذلك خالف منطوق الآيات ومفهومها[٤]، والأحاديث الصحيحة الصريحة الواردة في قضية الملائكة وإبليس. وهذا راجع كما أسلفنا لاعتماد مدرسة المنار في التفسير على العقل المجرد في التعامل مع نصوص الوحيين.

نظرة السّلّامي للملائكة وإبليس من خلال تفسير " نهج البيان".

تأثر السّلّامي بمدرسة المنار في النظرة العامة للملائكة وإبليس، فهو يثبت أنهم مخلوقات وأنهم مأمورون بأعمال يؤدونها على أكمل وجه وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ولا سبيل لهم لفعل الشر وأنهم مختلفون في قدراتهم التي مكنهم الله منها.

---

[١] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج/١، ص/٢٦٧- ٢٦٨

[٢] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج/١، ص/٢٦٩

[٣] المرجع السابق، ج/١، ص/٢٦٩-٢٧٠

[٤] منهج تفسير المنار في التفسير، هاجر محمد شبو، ص/١٩٦

والسّلّامي متأثر بالمنهج العقلي لمدرسة المنار في الغيبيات.فهو يرى أن الملائكة غير مخلوقة من مادة، وليست بأجسام، ولا يمكن رؤيتهم على حقيقتهم. كما يرى أن الأجنحة التي وصفت بها الملائكة في سورة فاطر (أولي أجنحة)[١] هي عبارة عن القوة والقدرة التي منحهم الله إياها. مخالفا بذلك منطوق ومفهوم النصوص من القرآن والسنة ، وما عليه جمهور المفسرين. فالنظرة العقلية للنصوص موجودة عند السّلّامي وهو بلا شك تأثر بالمنهج العقلي لمدرسة المنار .

مثاله: عند قول الله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)[٢] يقول السّلّامي : " الملائكة : جمع ملك . والملك مخلوق من غير مادة لا يعلم حقيقته إلاّ خالقه. ومن طبيعته أنه غير قادر على فعل الشر فهو مُمحض الطاعة. ولكل ملك مقامه ومهامه الموكلة إليه ينفذها حسب طبيعته تلك " [٣].

ويقول عند قوله تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)[٤] :"أدرك الملائكة مزايا آدم التي أهلته للخلافة في الأرض، وتبين لهم مقام العلم للتأهل لشرف الاستخلاف، بما كشف لهم ربهم من المشهد السابق، فصدر الأمر الإلهي لجميع الحاضرين كي يعبروا عن هذا التقدير للعلم بأن يسجدوا لآدم. وبدأ مشهد التكريم الرائع بسجود الملائكة جميعهم، وبقى كائن واحد شذ في المشهد وانحرف ولم ينفذ الأمر، وهو إبليس الذي كان من الجن من غير جنس الملائكة وكان يعيش معهم وشمله الأمر. ويشهّر القرآن بعصيانه ويشرح علة فساده بأنه رأى نفسه أعظم من آدم" [٥].

يرى السّلّامي أن الملائكة لم تخلق من مادة وليسوا أجسام. وهو خلاف منطوق ومفهوم النصوص وما عليه جمهور المفسرين.

فقد ثبت في صحيح مسلم: عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله : " خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِن نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِن نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمَ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ " [٦].

---

[١] من الآية (١) من سورة فاطر.
[٢] سورة البقرة، آية (٣٠).
[٣] تفسير نهج البيان، ج/١، ص/٤١
[٤] سورة البقرة، آية (٣٤).
[٥] تفسير نهج البيان، ج/١، ص/٤٦
[٦] صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، ح (٢٩٩٦)، ج/٨، ص/٢٢٦

وروى مسلم أيضا: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في وصف جبريل عليه السلام: " رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطاً مِنَ السَّمَاءِ سَادّاً عَظُمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ " [١]. وفي مسند أحمد، عن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – أن رسول الله : " رَأى جِبْرِيلَ فِيْ صُورَتِهِ وَلَهُ سُتُّمِائَةِ جَنَاحٍ... " [٢].

فهذه أحاديث صحيحة صريحة في دلالتها على أن الملائكة أجسام ولهم أشكال وخلقت من نور، ويمكن رأيتهم على صورتهم التي خلقهم الله عليها لمن اختصه الله بذلك، كما مرّ معنا في حديث عبد الله بن مسعود.

ويقول السّلامي عند قوله تعالى : (جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[٣] : " الملائكة: جمع ملك. وعرَّف الشيخ الطاهر بن عاشور الملائكة بقوله: أجسام نورانية أخيار ذوو قوة عظيمة، ومن خصائصهم القوة على التشكل بأشكال مختلفة، ومقرهم السماوات ما لم يرسلوا إلى الأرض " [٤].

إن الجنس الذي افتتح به التعريف لم أرضه، لأن إدخالها تحت جنس الأجسام التي تقتضي تركيبا ماديا ما وجدت في النصوص ما يشهد له، ولكن في نظري كائنات موجودة خلقها الله لا دخل للتركيب ولا المادة في تحقيق وجودها، لم تُمَكَّن من الاختيار، بل تمحضت للطاعة (لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)[٥] ولذلك لا يتصور أن يصدر عنها إلاّ الخير. أما القدرة على التشكل، وما ورد من ذلك في ظهور جبريل للنبي –صلى الله عليه وسلم- على صور مختلفة، هو صحيح، لكن الذي أطرحه هو أن ما يحصل في إدراك الرائي هل هو نتيجة تشكل المرئي حقيقة أو هو نتيجة القوة الإدراكية. فقطرة الماء النازل من السحاب يراها الرائي خيطا ممتدا من المصدر إلى الأرض، مع أنها في الحقيقة انتقال سريع لا يقدر البصر على الفصل بين الأمكنة المتلاحقة. فقد يكون تأثير الملك في بصر الرائي أنه يراه على شكل رجل أو على شكل جسم عظيم له أجنحة. وأرجح الفرض الثاني لأنه يحقق نفي الجسمية والأبعاد المكانية. ويجعل طبيعة الخلقة الملكية غير الطبيعة الإنسانية " [٦].

---

[١] صحيح مسلم، باب معنى قول الله تعالى(ولقد رآه نزلة أخرى)، ج/١، ص/١١٠

[٢] مسند الإمام أحمد، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنه، ج٤٠، ص/٢٧٥، ح.ر (٢٤٢٢٧).

[٣] سورة فاطر، آية (١).

[٤] التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج/٥، ص/٣١٥

[٥] سورة التحريم، آية (٦).

[٦] تفسير نهج البيان، ج/٥، ص/٣١٥

فالسّلّامي يسلم بصحة النقل في ظهور جبريل بأشكال مختلفة، لكنه يؤول هذه النصوص ويصرفها عن ظاهرها ومفهومها تأويلاً عقلياً من غير مستند يمكن الاتكاء عليه.

ويواصل السّلّامي كلامه فيقول: " يكلف الله بعضهم بحمل رسالاته، فيتولون تبليغها إلى من يختارهم الله ليكونوا أنبياءه ورسله. وهم بذلك أمناء على الوحي، لا يتقدمون عن الوقت المحدد ولا يتأخرون عنه، ولا يحوّرون منه شيئا بالزيادة أو النقص.

اثنين اثنين، ثلاثة ثلاثة، أربعة أربعة. وهل المراد أن هذا العدد حاصر أو المراد به التكثير. والمهم في نظري هو تبيين المراد بالأجنحة. ويكاد المفسرون يربطون في تصور أجنحة الملائكة بالصور المجسمة. ولا أعترض على من يقتصر على الظاهر، ولكن أرجح أن المراد بالأجنحة والله أعلم قوة يكون عليها الملك، فتفيد الآية أن قواهم وقدراتهم ليست على مرتبة سواء، فبعضهم أكمل قدرة من بعض، وأنهم جزء من التكوين العام للخلق. ربهم يحملهم القيام بمأموريات يؤدونها حسب استعداداتهم . ولا أستطيع أتصور أن خلق الملائكة له شبه بخلق الكائنات الأرضية[١].

فإذا قال الله : لهم أجنحة نثبت لهم أجنحة. لكن ليست من ريش ولا لحم ولا عظم ولا مثبتة في الجانب الأيمن أو الأيسر أو فوق الظهر. وقد ورد في الحديث أن جبريل عليه السلام له ستمائة جناح، وإسرافيل له اثنا عشر ألف جناح. وجبريل ينزل على رسول الله مبلغا الوحي، في بيته أو في المسجد أو فوق راحلته من الصور العديدة التي كان رسول الله يتلقى عليها الوحي. إنه يحدث في نفسي تناقض إذا تصورت تجسيما فيها. هي كائنات محدثة حسب قانون إلهي غير قانون خلق السماوات والأرض والإنسان والحيوان. فأبعد عنك أيها المؤمن كل تصور مستخلص من مباشرتك للحياة وجردها عن الدم واللحم والعظم والريش والتحيز " [٢].

الشيخ السّلّامي يتعامل مع النصوص الواردة في الملائكة ومادة خلقهم وتشكلهم وأجنحتهم التي وصفوا بها، بمنهج عقلي يجعله يخالف ما دلت عليه النصوص بمنطوقها ومفهومها ويخالف ما عليه جمهور المفسرين. وهو بلا شك متأثر بمنهج مدرسة المنار في هذا الباب.

---

[١] تفسير نهج البيان، ج/٥، ص/٣١٦

[٢] المرجع السابق.

يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: " واعلم أن ماهية الملائكة تتحصل فيما ذكره سعد الدين[١] في كتاب المقاصد: " إنهم أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكلات بأشكال مختلفة، شأنهم الخير والطاعة والعلم، والقدرة على الأعمال الشاقة، ومسكنهم السماوات، وقال: هذا ظاهر الكتاب والسنة وهو قول أكثر الأمة.

وعندي أن تعريف صاحب المقاصد لحقيقة الملائكة لا يخلو عن التخليط في ترتيب التعريف لأنه خلط في التعريف بين الذاتيات والعرضيات. والوجه عندي في ترتيب التعريف أن يقال: أجسام لطيفة نورانية أخيار ذوو قوة عظيمة، ومن خصائصها القدرة على التشكل بأشكال مختلفة، والعلم بما تتوقف عليه أعمالهم، ومقرهم السماوات ما لم يرسلوا إلى جهة الأرض "[٢]

ثانياً : السحر وحقيقته، وموقف تفسير المنار منه.

السحر لغة: ما خفي ولطف سببه، ومنه سمي السَّحَرُ سَحَرا لأنه يقع خفيًّا آخر الليل. نقل ابن منظور عن الأزهري أنّه قال:" السحر عمل تُقُرِّبَ فيه إلى الشيطان، وبمعونة منه، ومن السحر الأخذة تأخذ العين حتى يظن أن الأمر كما يرى، وليس الأصل على ما يرى، والسحر الأخذة، وكل ما لطف ودق فهو سحر "[٣].

واصطلاحا: هو عزائم ورقى وعقد تؤثر في القلوب والأبدان، فتُمرضُ وتقتل وتفرق بين المرء وزجه قال تعالى: (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ)[٤] وقال تعالى: (وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ)[٥].

والسحر هو صرف الشيء عن وجهه، قال القسطلاني[٦] : " أمر خارق للعادة، صادر عن نفس شريرة لا تتعذر معارضته، وهو بتأثيره نوع من الأمراض، كما قال القرطبي : الحق أن لبعض أصناف السحر تأثير في القلوب كالحب، والبغض، وإلقاء الخير والشر، وفي الأبدان بالألم والسقم "[٧].

---

[١]العالم الإمام: مسعود بن عمر بن عبدالله، الشهير بسعد الدين التفتازاني، (٧١٢هجري- ٧٩٣هجري)، ولد بتفتازان من بلاد خرسان، من أشهر مصنفاته: (مقاصد الطالبين)، ينظر: الدرر الكامنة، لابن حجر العسقلاني، ج/٤، ص/٣٥٠

[٢]التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ج/٢٣، ص/٢٥٠

[٣]لسان العرب، ابن منظور، مادة سحر، ج/٤، ص/٣٤٨

[٤]سورة البقرة، آية، (١٠٢).

[٥]سورة الفلق، آية (٤).

[٦]أحمد بن محمد ابن أبوبكر، القسطلاني، المصري الشافعي، العلامة الحافظ (٨٥١ – ٩٢٣ هجري)، ينظر الضوء اللامع، السخاوي، ج/٢، ص/ ١٠٣- ١٠٤

[٧]إرشاد السّاري، القسطلاني، ج/٨، ص/٤٠١

والسحر كما يقول ابن حجر[١] يطلق على أنواع :

الأول : ما لطف ودق، ومنه سحرتُ الصبي خادعته واستملته، ومنه قوله تعالى: (بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ)[٢]. أي مصروفون عن المعرفة.

الثاني : ما يقع بخداع وتخيُّلات لا حقيقة لها قال تعالى : (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ).

الثالث : ما يحصل بمعاونة الشياطين بضرب من التقرب إليهم .[٣]

وجمهور علماء أهل السنة على أن السحر ثابت وله حقيقة وتأثير قال تعالى : (وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ) فدل على أن له حقا وحقيقة، فهو مقطوع بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه وعلى هذا أهل الحل والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع[٤]. وذهب المعتزلة[٥]، والجصاص[٦] من الحنفية إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تمويه وتخييل لقوله تعالى : (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ).[٧]

موقف مدرسة المنار من السحر:

موقف صاحبي المنار من السحر لم يكن متفقا من كل وجه، فمحمد عبده ورشيد رضا اتفقا في كون السحر ليس له حقيقة وإنما هو ضرب من التخييل والتمويه، واختلفا في حديث سحر النبي عليه الصلاة والسلام، فمحمد عبده ينكر كون النبي عليه الصلاة والسلام سُحر ويرد الحديث الوارد في ذلك وإن كان في الصحيحين، ويرى أن إثبات ذلك طعن في نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتسويغ لطعن المشركين في النبي عليه الصلاة والسلام بقولهم: (إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا)[٨]. وأما رشيد رضا فيخالف شيخه في

---

[١] شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني ثم المصري الشافعي، (٧٧٣ – ٨٥٢ هجري) أمير المؤمنين في الحديث، من أشهر كتبه: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ينظر شذرات الذهب، ابن عماد الحنبلي، ج/٩، ص/٣٩٥- ٣٩٩

[٢] سورة الحجر، الآية (١٥) .

[٣] فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ج٣، ص/٢٤٧ - ٢٤٩

[٤] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج/١، ص/٢٣٢- ٢٣٣

[٥] المعتزلة : فرقة كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري (٨٠ – ١٣١ هجري) في البصرة، وازدهرت في العصر العباسي، وقد لعبت دورا مهما دينيا، وسياسيا، ينظر : في الفلسفة الإسلامية، إبراهيم مدكور، ج/٢، ص/ ٣٧

[٦] أحمد بن علي الرازي الجصاص الحنفي، (٣٠٥ – ٣٧٠ هجري) من أشهر كتبه: أحكام القرآن، ينظر: الجواهر المضيئة، القرشي، ج/١، ص/ ٨٤ ؛ شذرات الذهب، ابن عماد الحنبلي، ج/٣، ص/٧١

[٧] سورة طه، الآية (٦٥).

[٨] سورة الفرقان، آية (٨).

ذلك ويثبت سحر النبي عليه الصلاة والسلام ويرى تأثير السحر علي النبي فيما يخص إتيان زوجاته فقط، ولا يتعدى لمقام الرسالة وتبليغ الشرع.

يقول محمد رشيد رضا عند قول الله تعالى: (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)[١] : " والآية تدل على أن السحر خداع باطل، وتخييل يرى مالا حقيقة له في صورة الحقائق... فقد نص القرآن على أن السحر تخييل لما ليس واقعا، وأنه كيد ومكر، وأنه يُتعلم تعلما، وقال تعالى على لسان كليمه موسى: (فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)[٢]. وقال تعالى في آية أخرى: (وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)[٣]. فتعين أن يكون السحر باطلا لا حقا"[٤].

وأما عن موقف رشيد رضا من سحر النبي عليه الصلاة والسلام فيقول: " فهذا الحديث- يعني حديث سحر النبي عليه الصلاة والسلام- صريح في أن المراد من السحر فيه خاص بمسألة مباشرة النساء، ولكن فهم أكثر العلماء أنه عليه الصلاة والسلام سُحر سحرا أثر في عقله، كما أثر في جسده. فأنكره بعضهم، وبالغوا في إنكاره، وعدوه مطعنا في النبوة، ومنافيا للعصمة؛ لقول عائشة: " حتى إنه يخيل إليه أنه فعل الشيء، ولم يفعله". فعظمت هذه الرواية على علماء المعقول، وعدوها مخالفة القطعي في النقل، وهو ما حكاه الله تعالى عن المشركين من طعنهم فيه كعادة أمثالهم في رسلهم بقولهم: (إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا) وتفنيده تعالى لهم بقوله: (انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا)... فأنكر صحة الراوية بعض العلماء، وأقدم من عرفنا عنهم من المفسرين الفقهاء: أبوبكر الجصاص في كتابه (أحكام القرآن) وآخرهم: شيخنا الأستاذ الإمام في تفسير " جزء عم". وقد أطال شيخنا في هذا وبالغ فيه. وبنى إنكاره له على القاعدة المتفق عليها عند علماء العقائد وأصول الفقه في معارضة الظني للقطعي، إذا الحديث آحاد وهو يفيد الظن، فيُرد بالقطعي عقلا ونقلا...[٥].

ويقول أيضاً " قد محصت هذه المسألة مرارا آخرها في الرد على مجلة الأزهر " نور الإسلام " في زعمها المفتري أنني كذّبت حديث البخاري

---

[١]سورة الأنعام، آية (٧).
[٢]سورة يونس، آية (٨١).
[٣]سورة يونس، آية (٨٢).
[٤]تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج/٧، ص/٣١١- ٣١٢
[٥]تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج/١، ص/٣٩٨- ٤٠٨ ؛ المنار والأزهر، محمد رشيد رضا، ص/٩٥- ١٠٥

في سحر الرسول -عليه الصلاة والسلام- فبينتُ: أن الحديث الصحيح في المسألة عن عائشة- رضي الله عنها- توهم عبارة بعض رواياته ما هو أعم من المعنى الخاص الذي أرادته منه- وهو مباشرة الزوجية بينه- عليه الصلاة والسلام- وبينها، فقولها: " كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وهو لم يفعله " كناية عن الشيء الخاص، لا عام في كل شيء، فلا يدخل فيه شيء من أمور التشريع، ولا غير غشيان الزوجية من الأمور العقلية، أو الأمراض البدنية، فضلا عما كان يريده الذين يرمون الأنبياء بسحر الجنون؛ لأن أمورهم فوق المعقول عند أولئك الكافرين، فالمسألة محصورة فيما يسمونه حتى الآن " الربط" أو " العقد " أي عقد الرجل المانع من مباشرة زوجته فقط" [١].

فصاحبي المنار كما أسلفنا يتفقان في كون السحر لا حقيقة له، بل هو تخييل، ويختلفان في سحر النبي عليه الصلاة والسلام، فمحمد عبده ينكره جملة وتفصيلا، ورشيد رضا يثبت سحر النبي عليه الصلاة والسلام ولكن فيما يخص المباشرة الزوجية فقط.

ويقول رشيد رضا أيضا في أن السحر لا حقيقة له وإنما هو تخييل وتمويه، عند تفسيره لقوله تعالى: (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)[٢] : " أي فلما ألقوا حبالهم وعصيهم كما في سورتي " الشعراء، وطه" سحروا أعين الناس الحاضرين ومنهم موسى- عليه السلام- ففي سورة طه: (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ)[٣] واسترهبوهم أي أوقعوا في قلوبهم الرهب والخوف كما قال تعالى: (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ) وأصل الاستراهاب محاولة الإرهاب وطلب وقوعه بأسبابه، وقد قصدوا ذلك فحصل. وجاءوا بسحر عظيم: أي مظهره كبير، وتأثيره في أعين الناس عظيم، قال الحافظ ابن كثير: أي خيلوا إليهم أنّ ما فعلوه له حقيقة في الخارج ولم يكن إلاّ مجرد صنعة وخيال ... ثم قال رشيد رضا: " وقد ذكر بعض المفسّرين سرُّ صناعتهم في ذلك بما أراه استنباطا علميا لا نقلا تاريخيّا. قال الإمام الجصاص في أحكام القرآن: قال تعالى: (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ) يعني موّهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى، وقال: (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ) فأخبر أن ما ظنوه سعيا منها لم يكن سعيا وإنما كان تخييلا" [٤].

---

[١] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج/١، ص/٣٩٨- ٤٠٨ ؛ المنار والأزهر، محمد رشيد رضا، ص/٩٥- ١٠٥.
[٢] سورة الأعراف، آية (١١٦).
[٣] سورة طه، آية (٦٦).
[٤] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج/٩، ص/٦٦- ٦٧

والحاصل: مدرسة المنار خالفت ما عليه جمهور علماء أهل السنة في قضية السحر ووافقت ما ذهب إليه أبوبكر الجصّاص من الحنفية، وما عليه المعتزلة من كون السحر لا حقيقة له ولا تأثير، وإنما هو تخييل وتمويه.

موقف الشيخ السّلّامي من قضية السحر:

يرى السّلّامي أن على المؤمن أن يعتقد أنَّ السحر لا يترتب عليه لذاته ضرراً إلاّ إذا قدره الله. و يرى أن السحر تخييل وتمويه وليس بحقيقة. كما أن السّلّامي لم يتعرَّض في تفسيره "نهج البيان" لقضية سحر النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يبين موقفه منها.

فالسّلّامي يوافق مدرسة المنار في جانب من قضية السحر ويخالفها في جانب آخر. يوافقها في كون السحر لا حقيقة له، ويخالفها في أن للسحر تأثير لكن بما قدره الله.

فمثلاً: في تفسيره لقول الله تعالى: (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)[1] :" صرح القرآن بأن السحر لا تأثير له ذاتي، وأن الفاعل في الكون والمتصرف فيه هو الله وحده، ولا يستطيع السحرة أن يضروا بسحرهم أحدا إلاّ إذا أراد الله أن ينفذ فيه ضرّهم، فالقدرة لله وحده ".

ثم ذكر بعد هذا الكلام تحت عنوان: هل للسحر حقيقة؟ فقال: " إن أغلب من يدعون معرفتهم بطلاسم السحر ويوهمون ضعاف الشخصية والبائسين، والمتعلقين بالأوهام، بقدرتهم على تحقيق مطالبهم هم دجالون، يبتزون أموالهم، ويمدون لهم في الآمال الكاذبة. وقليل منهم قد استولى عليهم الشر وفساد العقيدة، وانفصلوا في باطنهم عن المجتمع الذي يعيشون فيه، وكانت لهم قوة عظيمة في الجانب اللامادي من كيانهم، قد يبلغون إلى حد من درجات الإيذاء كما يتضرر المحسود من الحاسد. ولكن على المؤمن أن يوقن أن السحر لا يترتب عليه لذاته ضرر إلاّ إذا قدر الله ذلك وجعل الساحر الخبيث وسيلة للضرر. هو كالميكروب والفيروس ينتشر في الكون ولا يضر إلاّ من أراد الله أن يؤثر فيه "[2]. فالسّلّامي يثبت أن للسحر تأثير لكنّه بما قدره الله سبحانه وتعالى، وهذا هو قول جمهور علماء أهل السنة والجماعة في حقيقة السحر.

---

[1] سورة البقرة، آية (١٠٢).
[2] تفسير نهج البيان، ج/١، ص/٩٣

يقول النووي[١] رحمه الله : " والصحيح أن السحر له حقيقة وبه قطع الجمهور، وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة "[٢].

وقال القرطبي: " ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة "[٣].

ويقول السّلامي أيضا عند قول الله تعالى: (فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)[٤] : " أجابهم بكلمة واحدة ألقوا، فأسرعوا ظناً منهم أنهم كسبوا الجولة الأولى، لأن المقدم هو الذي يبقى أثر فعله في المشاهدين. وكان صنعهم محكما استولى على أنظار الحاضرين فحملقوا فيه بين الإكبار لصنعهم وبين الرهبة من الحركة التي ماج بها المشهد. وكان عملهم بالنظر إلى القيمة التخييلية سحرا عظيما جدا "[٥].

ويقول أيضا عند قول الله تعالى: (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى " أجابهم موسى لكم ضربة البداية، حتى يفرغ ما عندهم فيجهز عليهم بعدها، ويبطل سحرهم ويظهر زيفهم. وأسرعوا عقب كلامه إلى عرض ما أعدوه. وقد كانت المفاجأة قوية، الحبال والعصي التي أحكموا اختيار موادها، وطلائها، وتركيبها، والنسب التي بينها، وأوضاعها من أشعة الشمس إذ الوقت ضحى، أخذت تضطرب وتتحرك، وإذا المشهد كله حيات تتلمظ وثعابين تتلوى " [٦].

يفهم من كلام السّلامي أن ما فعله السحرة في العِصيّ والحبال كان تخييل على الحاضرين ولم يكن سحرا حقيقيا وإنما قاموا بطلاء الحبال والعصي بمواد تجعلها تتحرك كأنها حيات خاصة مع تعرضها لحرارة الشمس في وقت الضحى. وهو تقريبا نقل لكلام محمد الطاهر ابن عاشور في الآية، فالسّلامي تناول الآية بنفس كلام ابن عاشور[٧].

ويقول أيضا عند قوله تعالى: (وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ)[٨] : " ومعظم المتعاطيات للسحر يتمتعن بذكاء حاد وخباثة حتى يصبح الشر أليفا لهن. ولشدة ذكائهن وشرِّهن وخبثهن تّعْمَلْنَ على الإضرار، وكثيرا ما يكون بتوسيط من يثق فيه المسحور. فالاستعاذة بالله منهن درءاً لشرهنّ، لا لأن لهنّ القدرة على الإيذاء. فكل شيء يحدث في الكون هو بقدرة الله وحده "[٩].

---

[١]أبو زكريا يحى بن شرف الحزامي النووي الشافعي (٦٣١- ٦٧٦ هجري) من أشهر كتبه: (المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، ينظر الأعلام، للزركلي، ج/٨، ص/١٤٩

[٢]فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ج/١٠، ص/٢٢٢

[٣]الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج/٢، ص/٤٤

[٤]سورة الأعراف، آية (١١٦).

[٥]تفسير نهج البيان، ج/٢، ٣٥٧

[٦]تفسير نهج البيان، ج/٤، ص/٩٨

[٧]ينظر التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج/ ١٦، ص/٢٥٨

[٨]سورة الفلق، آية (٤).

[٩]تفسير نهج البيان، ج/٦، ص/٨٣٧

خاتمـــــــة

وفيها أهم نتائج البحث:

تتبعت في هذا البحث تفسير: " نهج البيان في تفسير القرآن " للشيخ / محمد المختار السّلامي. بذلت من خلاله جهدي، للتعرف على بعض السمات المؤثرة لتفسير المنار في تفسير نهج البيان. وتوصلت لبعض النتائج وهي:

١- للشيخ محمد المختار السّلامي جهود بارزة في التفسير والفقه، والعقدية، واللغة، وهذه الجهود والآثار العلمية تظهر من خلال تفسيره نهج البيان.
٢- تأثر السّلامي بالمنهج العقلي في التعامل مع القضايا العقدية في التفسير لدى تفسير المنار، تأثرا كبيرا، حتى لا يكاد يخرج عن قوله في القضايا التي خالف فيها تفسير المنار جمهور المفسرين في هذا الجانب.
٣- تأثر السّلامي في نظرته للملائكة وإبليس، بنظرة تفسير المنار، وموقفه من النصوص الواردة في الملائكة وإبليس، فصرف النصوص الواردة في الملائكة عن مفهومها وظاهرها، بمنهج عقلي بحت.
٤- كما تأثر السّلامي بنظرة تفسير المنار لعالم الجن، فهو يثبت وجود الجن ، ويرد على المنكرين لوجودهم، كما هو موقف رشيد رضا، وينفي السّلامي إمكانية رؤية الجن وسماع حديثهم، كما يرى أن الله قد يختص بعض عباده بذلك.
٥- وفي قضية السحر تأثر السّلامي بموقف تفسير المنار، في كون السحر ضرب من التخييل والتمويه والتأثير على البصر، ولا حقيقة له.

مصادر ومراجع البحث

١- تاريخ الأستاذ الإمام – محمد رشيد رضا – دار الفضيلة للنشر والتوزيع – ط٢ – ٢٠٠٦م.

٢- تفسير المراغي – أحمد مصطفى المراغي – مطبعة مصطفى بابي الحلبي وأولاده – مصر – ط١ – ١٩٤٦م.

٣- تفسير المنار–محمد رشيد رضا–دار المنار–القاهرة – ط٢ – ١٩٤٧م.

٤- تفسير جزء عم – محمد عبده – مطبعة مصر- القاهرة – ط٣- ١٣٤١هجري.

٥- تفسير نهج البيان في تفسير القرآن – محمد المختار السّلّامي – دار التسفير الفني – صفاقس – تونس – ط١ – ٢٠١٥م.

٦- التفسير والمفسرون – محمد حسين الذهبي – مكتبة وهبة – القاهرة – ط٧ – ٢٠٠٠م.

٧- الجامع لأحكام القرآن – محمد بن أحمد القرطبي – دار الكتب المصرية- القاهرة – ط٢ – ١٩٦٤م.

٨- رشيد رضا صاحب المنار، عصره ومصادر ثقافته – أحمد الشرباصي – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – ط١ – ١٩٧٠م.

٩- الفتاوى الشرعية للشيخ محمد المختار السّلّامي – جمع وإعداد: محمد العزيز الساحلي – دار سحنون للنشر والتوزيع – ط١ – ٢٠١٤م.

١٠- فتاوى شيخ الإسلام محمد العزيز الجعيط– تحقيق: محمد بوزغيبه– مركز الدراسات الإسلامية – القيروان – ١٩٩٤م.

١١- منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير – فهد الرومي – مؤسسة الرسالة – ط٢ – ١٩٨٣م.

١٢- منهج تفسير المنار في التفسير – هاجر محمد شبو – رسالة دكتوراه– جامعة الخرطوم – ٢٠٠٤م.

١٣- اتجاهات التفسير في القرن الرابع الهجري، د/ فهد الرومي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢ ، ١٤١٤هجري.

١٤- ينظر المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات ، محمد المغراوي، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٠م